

مقياس النقد الأدبي الحديث

المحاضرة الأولى

إرهاصات النقد الأدبي الحديث ومرجعياته

الأستاذ: عبد الرحمن بن عمر
السنة الثانية - دراسات أدبية ونقدية -

مفهوم النقد الأدبي

• النقد الأدبي كمصطلح حديث ترجمة للمصطلح الفرنسي Critique littéraire الذي يعني مجموعة الأساليب المتبعة لفحص الآثار الأدبية والمؤلفين القدامى والمحدثين بقصد كشف الغامض وتفسير النص الأدبي والإدلاء بحكم عليه، في ضوء مبادئ أو مناهج بحث يختص بها النقاد.

• ومنذ القرن 16م في إيطاليا وإنجلترا، و 17 م في فرنسا وألمانيا أصبح النقد الأدبي الأساس النظري للأدب، بينما وصل إلينا نحن العرب في بداية القرن 20م.

• ولا شك أن هناك اختلافا بين مصطلح النقد القديم والنقد الحديث، فالنقد الحديث أكثر شمولاً لعناصر الأدب، وأكثر ارتكازاً على ثقافات وفلسفات ومعارف واتجاهات متعددة، وهذا يفرض علينا البحث في فلسفة الأدب وأهدافه ومصادره ووظائفه في الحياة وخصائصه الجمالية والفنية، بينما النقد القديم نقد لغوي جزئي يعنى بالبيت أو البيتين، ويغفل التعليل والتحليل، أحكامه ذاتية متأثرة بالمواقف الدينية أو المذهبية أو القبلية.

• ومع ظهور النقد الأدبي الحديث أصبح هناك منهج لدراسة النص مبني على أسس علمية معتمدا على جهود فرديناند دي سوسير، وعلى تطور العلوم الأخرى التي أفاد منها كالتاريخ وعلم الاجتماع والفلسفة وعلم النفس ...، وبهذا تعددت مناهج النقد الأدبي واختلفت أصولها وغايتها.

إرهاصات النقد الحديث

مع مرور السنين يصل الفكر الإنساني الأوروبي إلى عجزه عن تفسير الواقع ومواقفته، ذلك العقل الذي تحكمه الآلهة أو تحكمه الكنسية، ومع بزوغ عصر النهضة الحديثة، طرأ أهمُّ تحولٍ فكريٍّ حوّل التمرکز من الماورائي الأسطوري الكنسي الديني إلى الإنسان بصفته مركزاً حراً مغيراً للواقع ومعالجاً له، وسيلته هنا العقل وسيله العلمية والموضوعية، وبهذا تطورت كل العلوم بما فيها النقد، وأصبحت تحكمه قواعد وأسس ونظريات بعد أن كان يعتمد على الذوقية والذاتية التي ركزت على جمالية النص النسبية.

• هذه النهضة حولت العالم الغربي من الجهل والظلام والجمود والفراغ والتخلف والإقطاع والاستبداد، إلى عصر النور والعلم والحرية والمساواة بينما جعلوا من العالم الثالث خزاناً لمصانعهم وإنجازاتهم، فنهبوا ثرواته ودمروا بنياته ومقوماته .

• وبعد أن كان النص نصاً كلاسيكياً شعرياً ملحمياً دينياً ترفيهاً، تحول إلى نص ينبض بالحياة ويصور مناحيها المختلفة، وتطور النقد من التركيز على خارج النص إلى التمرکز حوله وحول لغته وبناءه .

• الانطلاقة الفعلية لعصر التنوير كانت بإعادة بعث التراث اليوناني القديم وجمع مخطوطاته في اليونان، حيث جمع بترارك Petrarque (ت 1374م) المخطوطات اللاتينية في إيطاليا، وبهذا خرجت نصوص شيشيرون Cicero (ت 43 ق م) و كونتيليان Quintilien (ت 96 م) وغيرهم من الشعراء والكتاب إلى النور.

• وكان التراث اليوناني القديم هو الركيزة التي اعتمد عليها الإيطاليون في بعث نهضتهم، وقد أسهم العرب - في عصورهم الزاهية - في نفض الغبار على العلوم اليونانية وترجمتها وتطويرها في الأندلس والمشرق، حيث نجد ذلك في كتب الفاربي وابن سينا وابن رشد وأبي حامد الغزالي وغيرهم من العلماء الذين برعوا في الطب والفلسفة وعلم الاجتماع بعد فتح الأندلس سنة 710 م..

- كانت انطلاقة النقد متذبذبة في بدايتها حيث ركز النقاد على الجانب الفني وملائمة الموضوع والبعد عن الغموض والإبهام والتركيز عن البلاغة والزخرفة اللفظية وأساليب الكتابة، فاهتم توماس إليوت بالبلاغة عند شيشيرون وكانت أعمال توماس ولسون كذلك حول فن البلاغة.
- كانت الغاية من النقد في البداية غاية نفعية، الهدف من الأدب هو تهذيب الإنسان وتمرنه وتهيئته لمواجهة الحياة، والأصل أن يبحث النقد عن مواطن الجمال في النصوص الأدبية.
- ولقد اعتبر فولتير النقد مهنة مواكبة لمهنة الأديب، حيث أنتج عصر لويس الرابع عشر (ت 1715م) أدبيا كلاسيكيا يخلف الأدبين اليوناني والروماني ويدفعنا إلى انتقاء الأعمال الأدبية الجديدة بالخلود من نتاج القرن 17م.

• أما عالمنا العربي فقد كان لهذه النهضة تأثير كبير عليه ولكن كعنصر مفعّل لا فاعلٍ، فالعرب كانوا أسياد العالم في عصر الدولة العثمانية التي بسطت نفوذها على أوروبا، وبعد سقوطها تحدثت المفارقة ويصبح العرب في جهل وفقير وتبعية للعالم الغربي، وأصبحت ثرواته غنائم وأراضيه مسارا للحروب والصراعات بين الدول الكبرى.

• بدأت النهضة العربية الحديثة منذ حملة نابليون على مصر سنة 1798م، حيث استقدم نابليون 48 عالما لدراسة مصر من كل النواحي وجلبوا معهم المعامل والأدوات الحديثة فأبهروا علماء مصر وطلبتها، كما أسست فرنسا مدرستين ومطبعتين وأنشأوا صحيفتين فرنسيتين .

• بعد ذلك أسس محمد علي باشا (ت 1849م) دولة قوية مستقلة، وطور - مستعينا بالفرنسيين - جيشه، وأسس مدارس لتعليم اللغات والطب والعلوم الحربية والهندسة، وأرسل البعثات العلمية إلى باريس وانجلترا، وأنشأ دورا للطباعة والترجمة، وجعل من اللغة العربية لغة رسمية.

• أعيد طباعة المصنفات القديمة، وظهرت فنون نثرية كالزجل وفن الرسائل الإخوانية والخطب الإصلاحية وفن المقامات.

• من نقاد هذه المرحلة حسين المرصفي وناصر اليازجي وحمزة فتح الله...

مرجعيات النقد الأدبي الحديث

• منذ بداية عصر النهضة طلق الغربيون تفكيراً متخلفاً رجعياً وهو ذلك التفكير الذي يفسر الحياة والكون تفسيراً أسطورياً ودينياً، بعدها انطلق العلماء والفلاسفة ليجروا في شتى العلوم ويصنفوا الكتب ويؤسسوا لنظريات معرفية وعلمية، منطلقين من جهود أرسطو وأفلاطون، وبهذا أسسوا لمنظومة فكرية قوامها العقل والمنطق اللذان يوصلان الإنسان إلى الحقيقة المقنعة.

• ورغم اختلاف العلوم الإنسانية والعلوم الطبيعية والدقيقة إلا أن رواد النهضة حاولوا التقريب بينهما، فأصبح العقل وسيلة للوصول إلى الذوق السليم، وأولى محاولات الوساطة كانت بظهور محاضرات دي سوسير الذي أكد على استقلالية علم اللغة عن العلوم الأخرى، كما درس اللغة في ذاتها ولذاتها.

تأثير العلوم في النقد

- مع تطور العلوم لم يعد النقد نقدا لغويا بلاغيا جزئيا، بل أصبح مناهج مختلفة تمتاز بالاتساع والعمق، تتناول كل ما له علاقة بالإنسان من عوامل وراثية ونفسية وعوامل خارجية كالبيئة والتاريخ والمجتمع والثقافة، ومن الجهود العلمية التي تعد مرجعا هاما من مراجع النقد أعمال الناقد الفرنسي سانت بوف Sainte-BEUVE (ت 1869م) الذي كان حريصا على الوصف لا على إطلاق الأحكام، وعلى النقد أن يقترب من الشخصية بؤد لا أن يرجع إلى عقيدة، وهو الذي بشر بالرومنطيقية التي قتلت الكلاسيكية، وركز على الأنا والنص والبعد التاريخي لهما.

- في حين يرى هيبوليت تين Hippolyte Taine (ت 1893م) أن العلم لا يدين ولا يسامح بل يشرح ويعاين، وهو من النقاد الذين عرفوا بالنقد العلمي الموضوعي، وقد درس النصوص الأدبية على ضوء ثلاثيته العرق - البيئة - الزمان.
- بينما آمن بورنتيير Brunetière (ت 1906م) بنظرية التطور وطبقها في أعماله النقدية مستنتجا أن الأعمال الأدبية يتطور بعضها عن بعض وفق قوانين كما تتطور النباتات والحيوانات.
- وخالف هانكان Hennequin (ت 1888م) أستاذه تين في تركيزه على التاريخ والبيئة لأنه بهذا المفهوم سيكون النتاج الأدبي متماثلا عند الجميع، فالنقد وسيلة لتحليل حالات النفس من خلال الأثر الأدبي، وهو لا يكفي لوحده بل علينا العودة إلى شخصية الأديب وسيرته وتاريخه وبيئته.

• وطور رينيه ديكارت René Descartes (ت 1650م) مصطلح المنهج والذي يقصد به الوسائل التي يستخدمها العقل للوصول إلى الحقيقة، كما تبنى مبدأ الشك الموصل إلى الحقيقة (أنا أشك ... إذن أنا أفكر ... إذن أنا موجود)، وحتى نصل إلى الحقيقة يجب أن نخطئ ونشك ونفكر، وقراءة القدماء في العلوم المختلفة بما فيها الرياضيات لا تتفع من دون منهج.

• وفي ألمانيا أكد إيمانويل كانط Immanuel Kant (ت 1804م) على عدم مصداقية المعتقد مقارنة بالمنهج الذي تحكمه أسس علمية ومنطقية، ووصولنا إلى الحقيقة في نظره لا يكون بالعقل فحسب كما يرى ديكارت، بل بالتوفيق بين الحس والعقل.

• وكل هذه الجهود الفلسفية أفادت من جهود أرسطو Aristotle (ت 322 ق م) في المنطق الصوري الذي أسسه على قواعد وخطوات منطقية نصل بها إلى الحقيقة.

مراجع المحاضرة

- كارلوني و فيلو، النقد الأدبي.
- محمد كريم الكواز، البلاغة والنقد المصطلح والنشأة والتجديد.
- بتول قاسم، محاضرات في النقد الأدبي.
- فائق متى إسحاق، مذاهب النقد ونظريات في انجلترا قديما وحديثا.
- محمد صلاح زكي أبو حميدة، دراسات في النقد الأدبي الحديث.
- شوقي ضيف، الأدب العربي المعاصر في مصر.
- كامل محمد عويضة، ديكرت رائد الفلسفة في العصر الحديث.
- عمّانويل كنط ، نقد العقل المحض.

